

يملك مالا في رُعب ، وعندما يُفجع في زائد ماله ، يفقد الرغبة في أن يتحرك في الحياة حركة زائدة تُنتج فائضاً لأنه لا يشعر بالأمن والأمان . وعندئذ يفقد العاجز عن الحركة في المجتمع السند والعون من الذي كان يتحرك حركة أوسع . إذن من رحمة الله أنه فتح أمام البشر أبواب الآمال في التملك ، مادام السعى إلى ذلك يتم بطرق مشروعة .

ونضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - : الرجل المرابي الذي يُقرض محتاجاً مائة جنيه ، كيف يطلب المرابي زيادة بمن لا يجد شيئاً يقيم به حياته ؟ إنه بذلك يكون قد أعطى من وجد أزيد مما أخذ منه مع فقره وعجزه . إن ذلك هو الإسراف عنه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا
أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ
يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢٢ ﴾

أول شيء في الحرب هو الاستيلاء ؛ فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أي يرغبون في الاستيلاء على خيرات أو ممتلكات الطرف الآخر . فكيف يحارب قوم الله وهو غيب ؟ . وأول حرب لله هي محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريع . فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرع أنت على غير منهج الله فأنت تريد أن تستولي على حق الله في التشريع . وهذه أول حرب لله .

والذين يحاربون الله أقم الذين يريدون أن يستولوا على ملك الله ؟ لا ؛ لأن يد الله في ملكه أزلا . وستبقى أبداً وسبحانه لن يسلمه لأحد من عباده . فعل ماذا

- إذن - يريدون الاستيلاء ؟ . إنهم يريدون تزييف تشريعات الله ، بينما سبحانه هو المشرع وحده . والتشريع - كما قلنا - هو قانون صيانة للصحة . إذن لماذا لا نترك خالق الإنسان ليضع القواعد التي تصون البشر ؛ لذلك فأول افتيات بفعله الناس أنهم يشرعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان ، فإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان - الذي هو منه - قانون صيانة نقول له : إنك تستولي على حق الله .

وكيف يجاربون الرسول ؟ .

نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم له وضمان ؛ فالله غيب ؛ لكن الرسول كان مشهداً من مشاهدنا في يوم من الأيام ، وقد حارب باليف ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله ، فتأخذ سلطته في التشريع ، وهي السلطة الثانية ونقول لها : نحن سنشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول ، أو أن يقول نظام ما : سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما يتشر في بعض البلدان . ونقول لكل واحد من هؤلاء : أتؤدى الصلاة ؟ . فيقول : نعم . نسأله : كم ركعة صليت المغرب ؟ . فيجيب ثلاث ركعات . نسأله : من أين أتيت بذلك ؟ . ومن أين عرفت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهي لم تذكر في القرآن الكريم ؟ : هنا سيصمت .

ونسأله : كيف تخرج الزكاة ويأى حساب تحسبها ؟ فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف بالمائة في النقدين والتجارة مثلاً .

نقول له : كيف - إذن - عرفت ذلك ؟ . وأيضاً كيف عرفت الحج ؟ . إذن فللرسول صلى الله عليه وسلم مهمة ، وحرب النبي تكون في ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه الصلاة والسلام .

ومثال ذلك هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة . ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها ، وكل كلام سمعته وأقره من غيره حديث ، وكل

فعل فعله غيره أمامه وأقره ولم يعترض عليه حديث ، فكيف تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التي وصلتنا بعد قدر هائل من التنقية البالغة ؟ لأنهم قالوا : لأن نبعد عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يفعله . إنهم يدعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن فاتهم أن الله حافظ دينه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع القواعد لغريبة الأحاديث فقال :

« من كذب على مُتعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (١) .

وها هو ذا البخاري ينقل عن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذين قابلوه ، وسيدنا مسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنها مظنة المقابلة وتعري كل منها الدقة الفائقة . وأي شخص كان به خدشة سلوكية لا يؤخذ بقوله ، ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم : « أنا يكفيني أن أقول لا إله إلا الله » ، تساءلت : كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله ؟ وكيف يمكن أن يؤدي الأذان للصلاة ؟ وكيف يؤدي الصلاة ؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق :

﴿ وَمَا أَتَىكَ الرَّسُولُ مَغْذُورُهُ ﴾

(من الآية ٢ سورة الحشر)

وهذا تفويض من الله في أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريع .

وكذلك الاجتزاءات على الأئمة ، هم يجترئون أولاً على النبي ثم يزحفون على الدين كله . وجاء فيهم قول الحق : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، أي يخرجون الصالح بذاته عن صلاحه ليكون فاسداً . الجزاء أن يَقتلوا أو يُصلبوا ، وهذا التفعيل في قوله : (أن يقتلوا أو يصلبوا) جاء للشدّة والتبوية ؛ حتى يقف منهم المجتمع الإيمان العام موقف القائم على هذا الأمر ، والسلطة الشرعية قامت عن الجميع في هذا الأمر ، كما يقال : إن النائب العام نائب عن الشعب في أن يرفع الدعوى ، حتى لا يتشر التقيل بين الناس ، دون أن يفقهوا حكمة كل أمر .

« أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من »

الأرض . وهل « أو » هنا تحيرية ، أو أن هنا - كما يقال - « ألف ونشر » ؟ والألف هو الطي . والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه .

فما الألف ، وما النشر - إذن - ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قلبي رجفى واللسان وخالقي ..

لقد ذكر مُتَعَدِّد ولكن الأحكام غير مذكورة . هذا هو الألف ، فجمع المبتدئات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره ، ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه . فأكمل بيت الشعر بقوله :

راضٍ وبكٍ شاكٍ وغفورٌ

ولنقرأ البيت كاملاً :

قلبي رجفى واللسان وخالقي
راضٍ وبكٍ شاكٍ وغفورٌ

والحق يقول :

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فبقوله : « لتسكنوا فيه » راجع إلى الليل ، وقوله : « ولتبتغوا من فضله » راجع إلى النهار . وهنا جاء بالألف ، ثم جاء بالنشر .

والفساد - كما نعلم - له صُور متعددة ، فالفساد في الإنسان قد يعنى قتله . أو قتله وأخذ ماله . أو الاستيلاء على ماله دون قتله . أو إثارة الرعب في نفس الإنسان دون أخذ ماله أو قتله . فكان كلمة الفساد طوى فيها ألوان الفساد ، نفس تقتل ، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ ، أو مال يُؤخذ دون نفس تقتل ، أو تخويف وتفزع .

ويقول الحق : « أو ينفوا من الأرض » ، والنفى معناه الطرد والإبعاد ، والطرْد لا يتأق إلا لثابت مُستقر ، والإبعاد لا يتأق إلا لمتحرك . إذن ، فقبل أن يُنفى لا بد

أن يكون له ثبوت وتحمُّن في موضع ما ، وهو ما نسميه اصطلاحاً السكن ، أو الوطن ، أو المكان الذي يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه . ومعنى ثابت فيه . أى له حركة في دارته ، إلا أنه يلوى إلى مكانٍ مُستقر ثابت ، ولذلك سُمى سكناً ؛ أى يسكن فيه من بعد تحركه في مجالاته المختلفة . ومعنى النفى على هذا هو إخراجُه من مسكنه ومن وطنه الذي اتخذ موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه . ولكن إلى أى مكان نُخرج إليه هذا الذي نحكم عليه بالنفى ؟ قد يقول قائل : أنت إن أخرجته من مكان أفسد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فسادُه !

لا ؛ لأن النفى لا يتيح له ذلك الإفساد ، ذلك أن التوطن الأول يجعل له إلفاً بجغرافية المكان ، وإلفاً بمن يجيئهم ؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يجنب فلاناً وكيف ينتصب بضاعة آخر وهكذا . ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه ، ومواطن الضعف فيهم . وعلى ذلك يكون النفى هو منعٌ للإفساد الفاسد .

وحين يقول سبحانه : « أر ينفوا من الأرض » نعرف أن كلمة « الأرض » لها مدلول ونسب الأرض الآن : الكرة الأرضية . وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه ، وبعد أن عرفنا أن جَوَّ الأرض منها صار جو الأرض جزءاً من الأرض . ولذلك قلنا في المقدمات المكاتبة : إن كل جو يأخذ التقديس من مكانه ؛ فجو الكعبة كعبة ؛ بدليل أن الذي يصل في الدور الثالث من الحرم ؛ ويتجه إلى الكعبة . يصل متجهاً إلى جو الكعبة . ومن يستقل طائرة ويرغب في إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة ، وعندما ازدحم الحجاج وصار المسمى لا يتسع لكل الحجاج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسمى الناس فيه . إذن فالمسمى ليس هو المكان المحدد فقط ، ولكن جوه أيضاً له قدسية ؛ فإن بنا كذا طابقاً فهي تصلح أيضاً كمسمى .

إذن فجو الأرض ينطبق عليه ما ينطبق على الأرض . ولذلك كانوا يحرمون - قبل أن يوجد طيارون مسلمون - أن يُحَوَّم في جو الحرم طيار غير مسلم ؛ لأن الطيار غير المسلم مُحرم عليه أن يدخل الكعبة والحرم . ومادام هناك إنسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضاً ممنوع من الطيران في جَوَّ الكعبة .

لأن جَوَ المكان يأخذ قُدسية المكان أو حكمه ؛ فالجَوَ من الأرض ، ونعرف أن الغلاف الجوي يدور مع الأرض . ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه . ومادام القائل للقرآن هو الخالق للكون ، إذن لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية . وإنما يوجد التضارب من أحد أمرين : إما أن نعتبر الأمر الذي لا يزال في طور النظرية حقيقة في حين أنها لم تصبح حقيقة بعد ؛ وإما أن نفهم أن هذا حقيقة قرآنية ، على الرغم من أنه ليس كذلك ، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق وحقيقة قرآنية بحق ، فلا تضارب على الإطلاق . ودليل ذلك على سبيل المثال قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

ويأتى العلم الحديث بالبحث والتحليل ، ويقول بعض السطحيين :

لا ، إن العلم يعرف ما في الرحم من ذكر أو أنثى . ونقول : نحن لا نناقش ذلك ؛ لأنها حقيقة كونية وهي لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية ؛ لكننا نسأل : متى يعرف العلماء ذلك ؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مضي مدة زمنية ، ولكن الحق يعلمه قبل مرور أية مدة زمنية . ثم من قال : إن الحق يقصد به ويعلم ما في الأرحام ذكرًا أو أنثى فحسب؟ وهل لدلوها وجه واحد؟ لا ، بل له وجوه متعددة فلن يعرف أحد أن ما في الرحم سيكون من بعد إنسانا طويلاً أو قصيراً ؛ ذكياً أو غيبياً ؛ شقيّاً أو سعيداً ؛ طويل العمر أو قصير العمر ؛ جلياً أو غصوباً . فلماذا نحصر ما في مسألة الذكر والأنثى فقط ؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أولاً قبل أن يعلم أى عالم وقيل أن يحصل العالم على أية عينة . ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملياً ما الذى تحمله في بطنها ؟ طبعاً لا ، ونحن لا نعلم ماذا في بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم . ثم هل تذهب كل النساء الحوامل في العالم لطبيب واحد ؟ بالطبع لا ، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما في كل الأرحام .

إذن فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأية حقيقة كونية ، لكن الصدام يحدث عندما

نضم فيها خطأ أن الحقيقة القرآنية في قوله الحق : « ويعلم ما في الأرحام » مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط .

ومثال آخر ، يقول الحق :

﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَهَا ﴾

(من الآية ١٩ سورة الحجر)

ويُخطئ البعض الفهم عن الله فيظن أن المقصود بذلك أن الأرض بساط أمام الإنسان . وقد ثبت للبشر حقيقة كونية هي أن الأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة ؛ وظهور أعالي الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك ، ثم صارت في عصرنا مشاهدة من الأقمار الصناعية . إذن هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها . وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية والفهم الصواب في مدلول الحقيقة القرآنية الخاصة بقوله تعالى : « والأرض مددناها » ؛ إتناكلها وقفنا في مكان نجد أرضاً ، أي أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

إذن فسبحانه قد مدّ الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار الإنسان في أي اتجاه ، يجد أرضاً . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية . لهذا كان الخطأ في فهم مدلول الحقيقة القرآنية ؛ لأن التصارب إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهي ليست كذلك ، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية على نحو خاطئ ، ؛ إنها لا تتعارضان ؛ فالقاتل هو الخالق فيه . ولهذا عرفنا متأخرأ أن الجو من الأرض وأن الغلاف الجوي يدور مع الأرض ، وكنا نقول : سرنا على الأرض ، لكنه سبحانه قال وهو العليم :

﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الانعام)

وهو سبحانه علم أولاً أن الجو جزء من الأرض . فمهما سار الإنسان على اليابسة ففوقه الغلاف الجوي . إذن فالإنسان إنما يتشئ في الأرض وليس على الأرض . أما إن سار الإنسان فوق الغلاف الجوي فهو يسير فوق الأرض .

ونعود إلى قوله الحق : « أو ينفوا من الأرض » وقد عرفنا أن النفي هو الطرد والإبعاد ، فأى أرض ينفون منها وإلى أى أرض ؟ ولا يكون الطرد إلا لاستف

ولا الإبعاد إلا لثابت . وحتى في اللغة نعرف ما يسمى النقى والإثبات . وكل ذلك مأخوذ من شيء جسي . فعندما نأخذ الماء من البئر ننزل إلى قاع البئر دلواً ، وكل دلو ينزل إلى البئر له « يشاء » وهو الحبل الذي ننزل بواسطته الدلو .

إننا ساعة نخرج الدلو من البئر ، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه . فهل لدينا حركة ثابتة نستطيع بها المحافظة على استطرار الماء إلى غمام حافة الدلو ؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن ؛ بل نجد قليلاً من الماء يتساقط من حوافي الدلو ، وهذا الماء المتساقط يسمى « النقى » ؛ لأننا لا نستطيع استخراج الدلو وهو ملآن لآخره بحركة ثابتة مستقرة بحيث تحافظ على استطرار الماء .

إن الماء - كما نعلم - له استطرار دقيق إلى الدرجة التي جعلت البشر يصنعون منه ميزاناً للاستواء . ومن « النقى » تؤخذ معان كثيرة ، فهناك « النفاية » وهي الشيء الزائد . إذن كيف يكون النقى من الأرض ؟ وهل نأخذ الأرض بمفهومها العام أو بمعناها الخاص ؟ أي الأرض التي حدث فيها قطع الطريق ؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنقى يكون لأي أرض أخرى . وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النقى ؟ ونرى أن الحق سبحانه قد قال في موضع آخر من القرآن :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

هم بلا جدال يسكنون في الأرض . وجاء هذا القول لمعنى مقصود ، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تمييز مكان في الأرض ، كأن يقول قائل : « اسكن ميت عمر » أو « اسكن الدقهلية » أو « اسكن طنطا » ، وهذا تحديد لموقع من الأرض للاستقرار ، والمعنى المقصود إذن أن الحق يبلغنا أنه سيقطعهم في الأرض قطعاً بحيث لا يستقروا في مكان أبداً . وذلك مصداقاً لقول الله :

﴿ وَفَطَّمْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمًّا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

فليس لهم وطن خاص . وثمت بغيرتهم في كل الأرض ، وهذا هو الواقع الذي

حدث في الكون . أوجد لبني إسرائيل استقرار في أي وطن ؟ لا . ربح الوطن الذي أقاموه بسبب وعد بلفور لم يترك الحق أمره . بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسنوا العمل لاسترداده . وما زال اليهود بطبيعتهم شتاتاً في أنحاء الأرض . ولم في كل وطن سوى خاص بهم . وتحفظ كل جماعة منهم في أي بلد بذاتيتهم ولا يذويون في غيرهم :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ

لَفِيضًا ۝ ١٣٣ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين بأن بهم الحق في الجولة الأخيرة سيأتون لفيضاً أي مجتمعين ، لأن الأمة المؤمنة حين يقربها الله لتضرب على هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مجتمعين . وكان الله قد أراد أن يكون هذا « الوطن القوم » حتى يتجمعوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيضاً ، لذلك لا نحزن لأنه قد صار لهم وطن ، فقد جاء بهم لفيضاً .

ونعود إلى الآية التي نحن بصددها . كيف يكون النفي من الأرض ؟ حين يريد الله تمييز مكان فهو يقول على سبيل المثال :

﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

إِذْ قَدْ نَفَىٰ غَيْرَهَا . وهو يقول أيضاً :

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ

(من الآية ١١٠ سورة الأعراف)

وكان المقصود بها مصر .

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فجعلناها حكم « اسكنوا الأرض » . والنفي هو صورة من صور العقوبات للإفساد ، والإفساد في الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام : قتل ، وأخذ مال ، أخذ مال فقط ، ترويع . وقد زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً وفعله في سيرته ، فقد جاء لنا بأمر جديد في أمر الإفساد . وكان على

العلماء أن يتنبهوا له ، فأول نفي حصل في الإسلام كان نفي رسول الله الحكيم بن أبي العاص من المدينة إلى الطائف ؛ لأن الحكم - والعياذ بالله - كان يُقلد بشبه النبي باستهزاء ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مشى تكففاً تكفوفاً كأنهما يتحدّر من صَبَب . فقد كانت مشية النبي مشية خاصة . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحكم يقلد مشيته في استهزاء والتفت النبي - ذات مرة - فجأة ، فوجد الحكم يقلده في مشيته ففاه من المدينة إلى الطائف ، وظل الحكم في الطائف طوال حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما جاءت خلافة أبي بكر الصديق ، ذهب أهل الحكم إلى أبي بكر ، فقال :

- ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق . وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضي الله عنه حياً وخجولاً فقال : لقد أخذت كلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمل شبهة الإفراج عنه . وخرج منه عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وأثناء حياة الحكم في الطائف كان يرى بعض شويحات وبعض غنيمات وكان يرعاها عند جيالات الطائف . وكان هذه المسألة آثار من بعد ذلك . فأنتم تعلمون أن معاوية رضي الله عنه أنجب يزيد الذي تولى الخلافة من بعده . وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحكم .

وكان خالد بن يزيد الذي ترك الخلافة لمروان عالماً كبيراً في الكيمياء وله أخ اسمه عبدالله ، وكان لعبدالله جياذ يتسابق بها . وكان لولد من أولاد عبدالملك بن مروان جياذ أيضاً ، وجرت جياذ عبدالله مع جياذ ابن عبدالملك في مضمار سباق ، فلما جلت خيل عبدالله لتسبق . . حدث خلاف بين عبدالله وابن عبدالملك ، فنهز ابن عبدالملك عبدالله ، فذهب عبدالله واشتكى لأخيه خالد . وهنا ذهب خالد لعبدالملك بن مروان ، وقال له :

- لقد حدث من ابنك لأخي كذا وكذا . وكان عبدالملك فصيحاً في العرب وما جربوا عليه لحناً أبداً . ورأي أولاده على ألا يلحنوا في اللغة . وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون الحن .

فلما دخل خالد إلى عبد الملك أراد أن يجد فيه شيئاً يعيبه به ، قال عبد الملك لخالد : أتكلمني في عباد الله وقد دخل على آتفا فلم يخل لسانه من اللحن ؟

وقال خالد - معرضاً بالوليد - : والله يا عبد الملك لقد أعجبتني فصاحة الوليد . فقال عبد الملك : إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن . فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد لا يلحن .

فقال عبد الملك : اسكت يا هذا فلست في العير ولا في النكير .

وأظن أن قصة العير والنكير معروفة . فالعير هي التي كانت مع أبي سفيان وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نجا بها أبو سفيان . والنكير هم الجماعة التي استنفرها أبو سفيان من مكة لأنه خاف من المسلمين وكانت زعامتهم لعتبة . فالعير كانت زعامته لأبي سفيان والنكير كانت زعامته لعتبة بن ربيعة ، وكان عتبة هو جد خالد لأمه ، وأبو سفيان هو جدّه لأبيه . فقال خالد : ومن أولى بالعير وبالنكير مني ، جدّي أبو سفيان صاحب العير ، وجدّي عُتْبَةُ صاحب النكير ، ولكن لو قلت غنيمات وشبهات وجبيلات وذكرت الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى . وأسكته .

إذن . فالتقى كان أول عقاب أنزله الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهل ما فعله « الحكم » يُعتبر فساداً ؟ . ونقول : إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذي يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحكم يستهزئ بمشية رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم .

وقد يقول مُشرّع ما : إن السجن يقوم مقام التقي ونقول : لا ، إن السجن الآن فيه الكثير من الرفاهية . فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة . والهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شرور المفسد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه . وذلك أمر متروك للحاكم يفعل كيف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة . بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض إلى أرض أخرى .

وينبع الحق هذا بقوله : « ذلك لهم غزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم »

ومادام الإنسان قد تاب وقام بتسليم نفسه دون أن يقدر عليه المجتمع فقبول التوبة حق له ، ويجب أن نأخذ « أن الله غفورٌ رحيم » في نطق ما جعله الله لنفسه ، أما ما جعله الله لأولياء المعتدي عليهم فلا بد من العقاب للمعتدي إن طلبه أصحابه .

« إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم » .
والقرآن يجعل من المنهج الإيماني عجيبة واحدة . لذلك يُقسَم المسائل إلى فصول كالتقنيات البشرية التي تُبَوَّب ؛ لذلك نجد القرآن يعامل الأقضية وكأنها فُرص استيقاظ للنفس ؛ لذلك يأخذ النفس إلى أمر نوجيه بالطاعة .

وَضَرَبْنَا مِنْ قَبْلِ الْمَثَلِ حِينَ تَكَلَّمَ الْقُرْآنُ عَنْ مَسَائِلِ الْأَسْرَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ :
﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ قَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا قَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا أَلَدَى يَدَيْهِ عَقْدَةُ الْبَيْكَاكِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٨٠ ﴾

(سورة البقرة)

ومن بعد ذلك يأتي إلى أمر الصلاة :

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ٢٨١ ﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ٢٨٢ ﴿

(سورة البقرة)

وضع الله - إذن - الصلاة بين أمرين من أمور الأسرة ، حيث قال من بعد أمره بالحفاظ على الصلاة حتى أثناء القتال :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ أَرْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَرْبِ غَيْرِ إِتْرَاجٍ فَإِنْ تَرَجَعْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

وجاء بأمر الحفاظ على الصلاة بين المشكلات الأسرية ، وذلك ليجعل الدين لبنة واحدة ، وأيضاً لأن النفس المشحونة بالبغضاء وإحرام أمور الزواج والوصية والطلاق ، هذه النفس عندما تقوم إلى الصلاة فهى تهدأ . ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . فقد كان إذا حزبه أمر واشتد عليه قام إلى الصلاة .

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يأتى بأمر الدين كأبواب منفصلة ، باب للصلاة ، وآخر للصوم ، وثالث للزكاة ، لا . بل يمزج كل ذلك فى عجيبة واحدة . ولذلك فعندما أنزل بالمفسدين المحاررين من عقاب التفتيل والتصلب والتقطع والتقى . كان ذلك لتربية مهابة الرعب فى النفس البشرية . وساعة يستيقظ الرعب فى النفس البشرية يقول الحق :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا
إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴾

لقد أخرجنا من جمر صارم وحديث فى عفويات إلى تقوى الله . والتقوى - كما نعرف - أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يؤذيه وقاية .

وعرفنا أن الحق سبحانه الذى يقول « اتقوا الله » هو بعينه الذى يقول « اتقوا النار » ، وعرفنا كيف نفهم تقوى الله . بأن نجعل بيننا وبين الله وقاية . وإن قال قائل :

إن الحق سبحانه يطلب منا أن نلتحم بمنهجه وأن نكون دائماً فى معيته . فلنجعل الوقاية بيننا وبينه عقابه . ومن عقابه النار .

إذن فقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » أى أن تنقى صفات الجلال ،